السيدة



أم المؤمنين الأولى

ووزيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

لمزيد

بقلم
سليل قبائل الأنصار الخزرج
أحمد عزوز أحمد الفرخ

السيدة

خديجة بنت خويلد

رضي الله عنها

أم المؤمنين الأولى

ووزيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

بقلم
سليل قبائل الأنصار الخزرج
أحمد عزوز أحمد الفرخ



اسم الكتاب : السيدة خديجة بنت خويلد
رضي الله عنها .

اسم المؤلف : سليل قبائل الأنصار الخزرج
أحمد عزوز أحمد الفرخ

اسم الناشر : دار الحسين الإسلامية
٢٥ ح المدرسة خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٤٧٣٢٢ ـ م : ٠١٠١٧٦٢٤٦٣
القاهرة

تاريخ الطبعة : ١٧ / ٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٨٥٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إليك يا أمّي ، يامن أرضعتيني الغذاء ، والحنان ، والعطف ، وعزة النفس ، والتواضع ..

وحملتيني في أحشائك تسعة أشهر وهن على وهن

السيدة الفضلى / عزيزة عبد السلام الفرخ

أهدي إليك

ملحمة أمّي ، وأمّك ، وأمّ المؤمنين كلّهما ...

يارب اجعلها تسقي أمي ، وأبي ، بيدها الشريفة ، وبيد حبيبها ، وحبيبنا رسول الله ﷺ شربة هنيئة ، مريئة ، بيدهم الشريفة ، لا يظمئوا بعدهما أبداً .

وكذلك كاتب هذه السطور ، وأولاده خديجة ، أدهم ، عزوز عصام الدين ، جلنار . وأولادهم ، وأحفادهم إلى يوم الدين .

وصلى اللّهمّ وسلّم وبارك على سيّد المرسلين ، وخاتم النبيين . سيّدنا محمد ﷺ ، وأصحابه الغر الميامين ، وأمهات المؤمنين ، وأهله وسلّم .



أمي

أمّ الإسلام

السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

السيدة الفضلى السيدة العظيمة التي عقمت نساء العالمين أن يلدن مثلها وهى الزوجة والأم الحبيبة والمدرسة التي تخرج منها أفراد الأمة الإسلامية في مهدها الأول في لحظة صدق .

أكتب كلماتي هذه عنك والكلمات تعجز عن ذلك فلك حبي يا أمّي ، سامحيني إن لم أعطيك قدرك كما ينبغي .

فلك حبّي يا أمّي ..

محب لأهل البيت

الأنصاري الخزرجي / أحمد عزوز أحمد الفرح

الإسكندرية

سيدة نساء العالمين

المرأة الأولى في العالم وفي تاريخ البشرية

وعقمت نساء الأرض أن يلدن مثلها في كل شيء

السيدة الشريفة العفيفة الكريمة الطاهرة ..

أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

هي : سيدة جميلة من أرقى بيوت العرب وأكثرها حسباً ونسباً وهي شديدة الإعجاب بمحمد بن عبد الله ، تسمع أخباره وتنصت إلى أوصافه في شيء كثير من الاهتمام .. يقولون لها : إنه شديد الاستقامة صادقاً أميناً .

ويقولون لها أيضاً : إنه شاب وسيم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، عيناه قال الله لهما : كونا فكانتا جميلتين دعجاوين واسعتين يشع منهما نور جميل ويشدك إليهما جاذبية شديدة .. شخصيته آسرة مبهرة وكلامه عذب جميل يشبه شهد العسل .. لذلك فإنها كانت حريصة أشد الحرص على أن تراه وتتعامل معه .

فتسعى إليه ويدفعه عمه أبو طالب إلى الخروج بتجارتها إلى الشام .. ويخرج بها ويعود بين يديه كل الخير ..

ويذهب إليها .. وتنظر إليه وكأنها لم تر أحد من الرجال قبل ذلك كأنها لم تتزوج مرتين وكأنها لم تُرزق بالأولاد .. وكأنها لم تبلغ الأربعين وتحس أنّ قلبها بدأ يخفق من جديد ونظرت إليه واستراحت عيناها وحياتها كلها بين يديه .. وتزوجا .

وعاشت مع محمد خمسة وعشرين عاماً .. رجل كغيره من العرب من أحسنهم خلقاً وأشدّهم حرصاً على الحق .. وعاشت بمفردها طوال حياته في مكة المكرمة كلها .. تنعم معه بحياة حلوة جميلة وترتشف معه رحيق حياة زوجية جميلة ملأت قصتها الدنيا كلّها .. وأتمّ الله سبحانه وتعالى سعادته عليهما ، وأكمل لهما بالخلف الصالح زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .. والقاسم وعبد الله .

وهي كانت سعيدة دائماً بزوجها محمد .. ترنو إليه وتقدم له كل ما تستطيع أن تقدمه المرأة لزوجها وهي لم تعرف شيئاً تحرص عليه في الحياة مثل حرصها على محمد .. وكانت تراقبه وهو يذهب لتصريف شئون الحياة ورعاية أسرته الجديدة ولكنها كانت دائماً مشفقة عليه من ألمه الشديد . لما صار إليه أمر أهله ومواطنيه .. وكانت تشعر

بذلك دائماً عن عودته من الكعبة التي كان يزورها ويطوف بها بين حين وآخر ولم يكن يتصور أبداً ـ وهو يرى الأصنام حولها ـ أن يعبد الناس حجارة يصنعونها بأيديهم ويظلوا لها عابدين .

هي إذن كانت مشفقة عليه من ذلك .. لكن لهفتها عليه كانت أشدَّ عندما كان يذهب وحيداً إلى غار في قلب جبل يتعبَّد فيه .. ينظر إلى السماء ويتفكر في خلق الكون والناس .. ويدرك بعمق أنَّ هناك قوَّة أخرى واحدة قويَّة متحكمة قاهرة قادرة لها قدرة مطلقة شاملة على كل شيء وليس كمثلها شيء .. ويأتيه خبر السماء .. أنَّه رسول الله .

لذلك فإنها لهفى عليه تضمه إليها وتواسيه وتستشير له أهل العلم ورجال الحكمة .. وتقول له : الله يرعانا يا أبا القاسم أبشر يا ابن العم واثبت .. والله ، لايخزيك الله أبداً إنَّك لتصل الرَّحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، وتتحمل معه عذاباً لا يعذبه أحد وتقول له : أنا أؤمن بك ، أنا أول من أُسلم بين يديك أنا أعرف أنَّه الحق وأنَّك على حق .. ويؤذَى محمد وهو في هذه الحالة محمد رسول الله ﷺ .. ويُطرد من مسعاه

خارج ديارهم ويفرض عليهم حصار رهيب .. وفي كل هذا كانت معه خديجة .. حتى وهن العظم منها واشتعل رأسها شيباً .. ووضعها محمد بين يديه وسهر معها طوال ثلاثة أيام رهيبة .. ينظر إليها وهي تقترب من الموت ، تنظر مبتسمة تشجعه بنظراتها ، وتوصي بناته به ، وتدعو الله له .

وماتت خديجة رضي الله عنها وأحس محمد بمرارة ليس لها مثيل في أحلك الأوقات بفقد أحد أعز أحبابه .. وينظر إلى السماء ودموع عينيه تفيض .. اللَّهمَّ أشكو إليك ضعف قوتي وقلَّة حيلتي وهواني على الناس .. ويمضي وقت غير طويل ويدعوه جبريل عليه السلام بالرحلة إلى الله .. (الإسراء والمعراج) ويمضي وقت غير قصير ويتزوج عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما .

وتمر أيام وتأتي أخت خديجة لترى أولاد شقيقتها .. ويسمع محمد صوتها « الذي يشبه تماماً صوت خديجة » ، وينتفض كيانه كله ويذكرها ويحن إليها ، وتغار عائشة وتقول له : « ما تذكر من عجوز من عجائز قريش أبدلك الله خيراً منها ؟! ويغضب محمد أشدَّ الغضب ، ويقول لها :

والله ما أبدلني الله خيراً منهـا .. آمنت بي حين كفرني الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منهـا الولد دون غيرها من النسـاء » .

سـلامي عليك في ذكـراك يا أول مـن نطقت في البـرية : لاإلـه إلا الله .. محمد رسول الله .

وكنت أود في داخلي أن أرزق بزوجـة مـثلك في جمـيع صفاتك الذهبية المثالية ، لكن هـذا محال .

أقـر واعـترف بأنَّك وحـبيـبي الأول وأسـتاذي ومـعلمي وقائدي وشـفيـعي محـمد ﷺ كنتـما أجمل قـصة حب قرأتها في حياتي كلهـا .

ومن فـرط إعجـابي بسيرتك الذهبـية دعوت الله مـخلصاً قبل أن أتزوج بسنوات وأنـا مازلت شاباً مراهقاً ـ أن يرزقني الله سبـحانه وتعالى ورسولـه الكريم ﷺ في دعائي البنت قـبل الولد لأحـظى بشـرف تدوين اسـمك قـبـل اسـمي ، واستـجاب الله الكريم الحليم ورسوله العـظيم دعوتي ، وقـد كانت خديجة أحمد عزوز الفـرخ .

بقـلم / ابنك البـار

الأنصاري الخزرجي / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ

خديجة رضي الله عنها

أم المؤمنين الأولى ووزير النبى صلى الله عليه وسلم

ولدت السيدة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها على أرجح الأقوال عام ٥٥٥ م أى قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً ، أبوها كان سيداً لبني أسد بن عبد العزي في حرب الفجار كما يقول ابن حزم ، فهو خويلد بن أسد بن عبد العزي ابن قصي .

أمَّا أمها فهى فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر ابن لؤى .

وكان للسيدة خديجة رضي الله عنها أخوة وأخوات أشقاء : عدى وكان الكبير ، ونوفل ، والعوام ، وحزام ، ومن الفتيان .. هالة ، ورقيقة ، وخالدة .

أمَّا عن أختها هالة فقد تزوجت العديد من الرجال فتزوجت الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس الذي أنجب منها أبا العاصي الذي تزوج السيدة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلف عليها ربيعة بن عبد العزي بن عبد شمس ثم وهب بن عبد بن جابر الثقفي ، ثم قطن بن وهب بن عمرو الخزاعي .

خـالدة تزوجهـا علاج بن أبي سـلمة بن عـبد العـزّي بن غـيرة الثقفي ، لـم تعقب .

رقيقـة تزوجها عبد الله بن بجـاد بن الحارث بن حارثة ابن سعد بن تـيـم بن مـرة بن كعب التي أنجبت منه أميـمة التي تزوجها الصـحابي طليب بن عمير ابن عمـة الرسول ﷺ (عاتكـة) فـلم يعقب منهـا .

أمّـا عن الأخـوة البنين فـعـدى فلم يعـقب على الإطلاق (بوصفـه ناسكاً ومات في الجاهليـة) ، ونوفل لـه نسل وقـد انقرض (ونوفل هـذا قُتل في غزوة بـدر على يـد ابن أخيـه الزبيـر بن العـوام) ، أمّا حـزام فهـو والد الصحـابي الجليل حكيم بـن حـزام رضي الله عنه ولـه نسـل ، وخـالد (لم يعـقب) ، وهاشم ، وقـد انقرض نسـل هاشم بن حـزام .

أمّـا العوام بن خـويلد فهـو والد الصحـابي الجليل الزبير ابن العـوام رضي الله عنه وعبد الله وعبـد الرحمن والسائب ، وللزبير ابن العـوام نسـل حتى الآن ، (ولم يعقب الآخرون) .

لا يذكـر الرواة شيـئاً عن حيـاة السيـدة خديجـة رضي الله عنها في فتـرة الطفولة ، ولا حـتى بالتفصيل الدقيق عن حيـاتها قبـل زواجها بالرسـول ﷺ سوى أنهـا تزوجت في الأول هنـد

ابن النباش بن زرارة بن عدى بن حبيب بن صرد بن سلامة ابن جردة بن أسيد بن عمرو التميمي ، على الرغم من أنها أول زيجة للسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلا أنّ زوجها هند بن النباش كانت هى زوجته الثانية ، وكان مقيماً بها في مكة المكرمة لأنّ ابنه الحارث بن هند كان من صحابة رسول الله ﷺ ، وكان قد قُتل في الركن اليماني . وكان من ثمار هذه الزيجة الأولى ابنها الأول هند (وهند هذا شهد بدراً وأحداً مع الرسول ﷺ ودخل قبر حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، وقد مات بالبصرة في عهد الإمام علىّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ، وقد روى حديث من رسول الله ﷺ : « أنَّ الله أبى لي أن أتزوج أو أزوج إلا أهل الجنة » ويروي سيدنا الحسن رضي الله عنه وعن آبائه الطيبين الكرام صفة رسول الله ﷺ من هند هذا رضي الله عنه) . ويقرب الرواة أنَّ هذا الزواج الأول تمَّ في عام ٥٧٣ م ، ويحتملون أنَّ ميلاد هند تقريباً في عام ٥٧٤ م ، ثم يموت الزوج الأول وهو هند بن النباش بن زرارة في أحد الرحلات التي كان يقوم بها للصيد في شرق الجزيرة العربية ، ويقول المؤرخون: إنَّ هذا الزواج دام أربعة أعوام حتى عام ٥٧٧ م .

ثم يأخذ الرواة في السرد أن تقرب من أبيها عتيق ابن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الذي تزوجها بعدها بعام أى في عام ٥٧٨ م ، ولكن لم تدم العلاقة بين الطرفين لفارقها عتيق هذا ، وكان قد أنجب منها أمة (بنت) سمتها هند ، كبرت هذه الفتاة وتزوجت ابن عمها صيفي بن أمية ابن عابد المخزومي الذي كان من أعداء الرسول ﷺ ، وكان من الكفار لكنه قُتل في بدر مع أخوته رفاعة ورفيع .

ثمَّ اتجهت السيدة خديجة رضي الله عنها للتجارة فكان يقوم بالعمل معها العديد من الرجال للعمل في التجارة وما إن أكملت عامها الخامس والثلاثين حتّى مات أبوها وأصبحت لها شخصيتها المستقلة التي انفردت بها ، وأصبحت من النساء القلائل التي يعملن في التجارة مزاحمة مع الرجال في ذلك الوقت العصيب الذي لم يكن للمرأة فيه أى احترام أو وقار.

السيدة خديجة مع الرسول ﷺ :

كان الرسول ﷺ قد أينع صباه واكتمل شبابه في بيئة تعد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعم الحياة في مذاقه مرآ كلّما عاودته ذكرى بعيدة .

ومافتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده إلى لحظة طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاماً ، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين مكة المكرمة ويثرب أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من جسدها رويداً ، ثم تنطفيء إلى الأبد .

ثمانية عشر عاماً ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين ، فيرى نفسه مكباً على الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية بالأبواء ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لا يملك أن يستبقي أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام بعد أن أهالوا عليها الرمال .

وربما شغلته شواغل العيش حيناً عن أشجانه ، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذي غال أعز من له أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن ينتزع من حاضره مستثار الحزن فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد في طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية في جوف الصحراء ، ثم ينثني مثقلاً بالأسى والشجن .

ما أكثر ماكان يمر في مكة المكرمة بالبيت المهجور الذي ضمه وأمه زمناً ، ثم أوحش من بعدها وخلا !.. ما أكثر

ماكان ينطلق إلى المراعي خارج مكة المكرمة ، فإذا حان المساء وآن له أن يثوب إلى منزله ـ تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه عائداً من رحلته الأولى إلى يثرب ، وحيداً محزوناً مضاعف اليتم ، يتبع جاريته « بركة »، وأنى الخطو صامتاً واجماً وهى تسعى له إلى بيت جده الشيخ عبد المطلب بن هاشم زعيم قريش ، وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التي تروع صباه ، كم جاهد ـ عامين كاملين ـ ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز .

لكن الزائر الموهوب الذي ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه عاد من جديد لطوف بحى بني هاشم ، وتلبث برهة حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل .

ووقف الغلام مرة ثانية يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أباً بعد أبيه .. وأصغى في وجوم حزين إلى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدني إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه (بمحمد) بن أخيه « عبد الله » ثم يمضي .

وانتقل الصبي من بعده إلى منزل جديد ، ووجد في عمه أباً مثالياً ، لكنه ظلّ يفتقد الأم ، وبقى قلبه على الأيام

والشهور والسنين ينزع نحو مرقدها الأخير في الأبواء .. ولم يستطع ضجيج صبية بني هاشم في ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التي صكت أذنيه وقلبه في جوف البيداء ، ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول (البيت العتيق) في (أم القرى) أن تطوى في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها قرب الأبواء .

وها هو يقف في المساء الساجي عند مدخل مكة المكرمة شارد البال ، والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمت العميق شجناً وإعياء وتتكاثف الظلمة من حوله ، فيجمع نفسه في جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه ، وفي نفسه إحساس مرهف بفراق وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي آواه سبعة عشر عاماً ، وحسب العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار .. ولكن إلى أين ؟..

إلى الشام مؤقتاً كما أراد له عمه في صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه في مطلع الشمس عن رحلة مرجوة، وقال له فيما قال : « يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتدّ

الزمـان علينا ، وألحـت علينا سنون منكـرة ، وليس لنـا مال ولاتجارة، وهذه عـيـر قومك قـد حـضر وقت خروجـهـا إلى الشـام ، وخديجة تبعث رجالاً يتـجرون في مالهـا ويصيبون منافع ، فلو جئتـهـا لفضلتك على غيرك لمـا يبلغها عنك من أمانتك وطهـارتك ، وإن كنت أكـره أن تأتي الشـام وأخاف عليك من يهـود .. وقـد بلغني أنَّهـا استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثـل ما أعطته فهل لك في أن أكلمها ؟ ».

قـال (محمد) ﷺ : « ما أحببت يا عـم » ..

تُرى هـل كلمهـا العـم واستقر العـزم على الرحيل ؟ إذن فليرحل تاركاً تدبير المستقـبل للغد المطوي في ضمير الغيب. وبعض المصادر تقـول : إنَّ السيدة خديجـة هى التي عرضت عليه مباشرة أن يخرج من مالهـا إلى الشـام تاجـراً .

وأخـذت القافـلة تغـذ السير نحـو أم القـرى عـائدة من رحلة الصيف إلى الشام ، والحداة يهزجون بأغانيهم التي تعد الإبل بالراحة والظـل والرى ، وتمنى الركب بالأنس في لقـاء الأهـل والأحباب ، والمسـافرون قـد استغرقـتهم نشـوة حالمة منـذ بلغـوا « مـر الظهـران » على مـقـربة من مكـة المكرمـة واشـرأبت أعناق إلى مـعالمهـا التي لاحت لهـم مـن بعيـد ، تناديهم في لهفـة واشتياق .

لكنه وحده ـ من بين هؤلاء جميعاً ـ انطوى على نفسه يكابد أشجانه التي هاجها مرور القافلة قريبة من الأبواء في طريق عودتها إلى مكة المكرمة ، وعبثاً حاول تابعه المرافق أن يغريه بالتطلع إلى أم القرى أو يشغله بالحديث عمَّا ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة التي اختارته ليخرج في مالها إلى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ماكانت تعطي غيره ممَّن استأجرتهم قبله .

وقال ميسرة : أسرع أنا إلى سيدتي فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ؛ فإنها تعرف ذلك لك .

فتركه الرسول الكريم يمضي وفرغ لتأملاته : أهذا كل ماينتظر المسافر العائد من الشام ؟ والحداة يمنون الركب بالأنس في لقاء العشيرة والأحباب !

وكرَّ بصره راجعاً إلى الوراء ، يتبع آثار طيف من أمه «آمنة» بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء . وسارت الحياة في مكة المكرمة على وتيرتها أياماً ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاقٍّ طويل ، محفوف بالأخطار .. وصفى

حساب القافلة أو كاد ، وانقطع مابين التجار والأجراء إلى حين ، اللهمَّ إلا ماكان بين السيدة خديجة الطاهرة ومحمد الصادق الأمين ..

استغرقت في تفكيرها تستعيد صوته الفريد المميز وهو يحدثها عن رحلته ، ويطلعها على ما رآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال . وفجأة ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذي التقت فيه الشاب الهاشمي فهزها شعور مباغت ، خفق له قلبها : فيم الخفقان ، وقد أدبر الشباب أو كاد ؟ وانتفضت لا تدري كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت ـ في حساب بيئتها ـ من حياة الرجال ؟! وكيف تلقى بها قومها وقد ردَّت عن بابها الخُطَّاب من سادة قريش وسراة مكة المكرمة ؟!

لقد فكرت في قومها دون أن تعرف رأى «محمد» فيها .. أتراه يستجيب لعاطفة أرمل كهلة في الأربعين من عمرها ، وهو الذي انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة المكرمة وزهرات بني هاشم الناضرات ؟! وانتابها ما يشبه الخجل ، فما كهولتها بالقياس إلى « محمد » في شبابه غير خالة أو أم ، وهي بعد ليست خالية من هموم الأمومة ، فقد ترك

لهـا زوجـهـا عـتـيق بن عـائذ المخزومـي ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هـالة هند بن زرارة التميمي، ولدها هند غلاماً لم يشب عن الطـوق .

فأى طائل وراء هـذه العاطفة التي تبدو يائسة عقيماً ؟! وفيما هى في حيرتها زارتها صديقتها نفيسة بنت منية فلم يغب عنهـا الذي تجد صـاحبتهـا ، فمـازالت عليهـا حتى كشفت لهـا عن سرها المطوي .. وهونت نفيسة الأمر عليها، فما في نساء قريش من تفوقها نسباً وشرفـاً ، وهى بعـد ذات غنى وجمـال ، كل قومها حـريص على الزواج منها لو يقدر عليه ، ثم تركتها وقـد اعتـزمت أمـراً . وبعض السير كتبت أن السيدة خديجة عـرضت نفسـها عليه من غير وسـاطة .

وإنّي أشك في سن السيـدة خديجـة الذي يكتبـه المؤرخون بعلى أنّه كان أربعين سنة يوم تزوجها رسول الله فكيف تنجب في هـذه الفترة وما بعـدها أولاد الرسول الستة أربعـة إناث وولدان ؟! طبعـاً هى كانت عندها أنوثة والبيئة الصحراوية وغيرها .

جاءت محمد فسألته : فيم عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على

شبابه بالحرمان ؟ اهلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته ؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبياً في السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته : ما بيدي ما أتزوج به ..

قالت على الفور : فإن دُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فما إن مسَّ سؤالها أذنيه حتّى أدرك من تعني ..

تلك خديجة وربِّ الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفاً وجمالاً وكفاءة ؟.. ألا لو دعته لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟ وانصرفت نفيسة وتركته مشغول البال ، يرنو في رقّة إلى طيف من خديجة ، قد تراءت له في وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير ، تشع لطفاً وبهاءاً وحنواً .. وأشفق من أن تبعد به أمانيه ، إذا كان يعلم ردّها أشراف قريش وأغنياءها فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة : جئت خاطباً يامحمد ؟

أجاب غير كاذب : كلا .

فتأملته برهة ثم هزت رأسها وهي تقول : ولم ؟، فوالله مافي قريش امرأة - وإن كانت خديجة - لا تراك كفئاً لها .

ثم لم يلبث إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقى دعوة خديجة فسارع إليها ملبياً ، وفي صحبته عماه حمزة وأبو طالب ابنا عبد المطلب ، وهناك في بيتها ألفوا قومها ينتظرون، وكل شيء مهيأ لزواج سريع .. تكلم أبو طالب :-

« أمَّا بعد : فإنَّ محمداً ممَّن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قل فإنَّما المال ظلٌ زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » .

فأثنى عليه عمها عمرو بن أسد بن عبد العزّي لأنَّ أباها خويلد مات قبل حرب الفجار ، ولم يكن للسيدة عم واحد بل أعمام عدةٌ هم (الحارث ، والمطلب ، وعبد الله ، وحبيب ، وصيفي ، وطالب ، وطليب ، وخالد ، والحويرث، وهشام ، ومهشم ، ونوفل) ، وكان لكل منهم سلالة .. فالحارث من سلالته أبو البختري العاصي بن هشام (أحد الذين مزقوا ورقة المقاطعة التي علقت في الكعبة لمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ابنى عبد مناف ومات كافراً في بدر ،

وابنه الأسود بن أبي البختري كان إمام المسلمين في مكة المكرمة إبان الفتنة بين الإمام عليّ كرّم الله وجهه ومعاوية ابن أبي سفيان ، ومن المطلب الأسود بن المطلب وأبناؤه هبار (وهو الذي نخس زينب بنت رسول الله ﷺ إذ حملت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة أبان هجرتها فأسقطت جنيناً وقتله الإمام عليّ كرّم الله وجهه ومن سلالته عالم الإسلام الشهير أبو الحسن الندوى بدولة الهند) ، وعقيل وزمعة (قُتلا في بدر) ، ومن سلالة حبيب راوي الأحاديث الشريفة عطاء بن ذؤيب الذي مات في أوائل العصر العباسي ، ومن سلالة الحويرث عثمان (وكان من المستهزئين ، ومات متنصراً كافراً بالشام بعد أن دسّت له قريش السُّمَّ لمحاولته أن يسيطر على سيادة مكة المكرمة بمساعدة قيصر الروم) ، وأنكحها رسول الله منه على صداق قدره عشرون بكرة .

ولما انتهى العقد ونحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء إذا بينهم حليمة السعدية قد جاءت من بادية بني سعد لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته ، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من

الغنم هبة من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت محمداً زوجها الحبيب . وتندت عينا محمد وهو يتفقد أمه (آمنة) فإذا يد لطيفة رقيقة تأسو الجرح القديم في حنان غامر ، وإذا به يجد في (خديجة) عوضاً جميلاً عمَّا قاساه من طويل حرمان .

ولم يعنِ مكة المكرمة من أمر الزوجين السعيدين سوى أنَّ زواجاً ربط بين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي وخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي ابن قصي القرشية الطاهرة .

ولكن التاريخ تلبث بعد بضع عشرة سنة ليسترجع يوم العرس المشهود ، ويسجله بين أيامه الخالدة على مر الزمان وقد انصرف إلى حين ، تاركاً هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها مكة المكرمة ويترشفان على مهل رحيق ود صاف وعميق سيظل حديث التاريخ ، واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاماً ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتمَّ الله عليهما نعمته فرزقهما البنين والبنات : القاسم (٥٩٧ م) وزينب (٥٩٨ م) ورقية (٥٩٩ م) وأم كلثوم (٦٠٠ م) وفاطمة (٦٠٦ م) وعبد الله (٦١٠ م) .

وأرخى الزمن لهما في حياتهما تلك الرضية الهادئة أعواماً ذات عدد ارتوى محمد خلالها من نبع الحنان معوضاً بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزوداً لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام ، وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين (القاسم وعبد الله)، فكان للزوجين في وئامهما وتصبرهما ما أعانهما على تجرع الكأس التي تدور على الناس جميعاً فلا يعفى من شربها أحد وماكان ولداهما إلا وديعة ، ولابد يوماً أن تسترد الودائع .

مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر:

ثم كان الحادث الخطير .. لا في حياة الأسرة الوادعة فحسب ، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم ، بل في حياة الإنسانية أجمع فلقد تلقى محمد رسالة الوحى في ليلة القدر ، واصطفاه الله تعالى خاتماً للنبيين عليهم السلام، وبعثه في الناس بشيراً ونذيراً .

وكانت الرسالة إيذاناً بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءاً لعهد ملؤه الاضطهاد والأذى والجهاد ثم النصر . وفي الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه !

وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها !

مكة المكرمة على الخصوص كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبشريات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ؛ لتصب حول البيت العتيق مثابة الحج ومركز العبادة ومن قديم العصور والآباد .. غير بعيد من دار المولد وما حف بها من ذكرى قصة الفداء ، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة والرحلة إلى الشام .

لكن أحداً لم يدر يقيناً وكيف ومتى يكون المبعث المنتظر ، ومن هنا كان لنزول الوحى على المصطفى ﷺ وقع المفاجأة العنيفة التي جاوزت أبعاد التصور. كان منذ استقرت به الحياة في رعاية الزوج الرؤوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي ، وقد أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل ، وميل إلى التفكير المستغرق ، وهي نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا ، ووجدت في ساعات فراغه مجالاً رحباً ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد قوية أصيلة ، كأنما هي فطرة فيه .

وكثيراً ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك هى التي صنعت تاريخ مكة المكرمة وتاريخ أسرته بوجه خاص ، ووصلت مابين أبيه عبد الله وإسماعيل عليه الصلاة والسلام جد العرب برباط وثيق نسجته يد الزمان طوال قرون لاعداد لها ، فأحييت بحادث فداء عبد الله من الذبح ذكرى متناهية في القدم لمشهد الذبيح الأول بن إبراهيم .

وانبلج له نور الحق ، فرفض هذه الأصنام التي تكدست في بيت الله صمًاء عمياء لا تملك لنفسها نفعاً ولاترد عن نفسها ضراً ، وأنكر أن تخف أحلام قومه ، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأرباباً ! !

وأرهف التأمل حسه ، فإذا هو يستشف أدق مافي الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء ـ قوةً عظمى خفية تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس : ٤٠) ، وما إن شارف الأربعين حتى كان قد ألف الخلوة في غار حراء واستطاب رياضته الروحية التي يحس

خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلي السر الأعظم ، وماكانت خديجة في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحياناً أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ماوسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت ، فإذا انطلق إلى غار حراء ظلّت عيناها عليه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه ، بل كانت بنفسها تذهب إلى غار حراء للاطمئنان عليه ليلاً ، كانت تسير حوالي أربعة كيلومترات في الظلام .. يالها من سيدة عظيمة كريمة حبيبة وأم للمؤمنين !!

وهكذا بدا كأن شيئاً مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها ـ رغم هذا التهيؤ ـ زلزلت حين جاءت أرجاء ذلك العالم الذي طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت ذلك النبى المصطفى محمد بن عبد الله الذي ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا ارتاب قط في أن حياة قومه لن تمضي هكذا على سفه وضلال .. فلما نزل عليه الوحى في ليلة القدر وهو في غار حراء انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر شاحباً يرجف فؤاده ـ حتى بلغ حجرة زوجه وذهب

عنه الروع ، فحدثها في صوت مرتجف عن كل ماكان ، ونفض لديها مخاوفه ، قال : لقد خشيت على نفسي ، أتراه يهذي حالماً ؟! أم به جِنَّة ؟!

وضمته إلى صدرها ، وقد أثاره مرآة أعمق من عواطف الأمومة في قلبها ، وهتفت في ثقة ويقين (والله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن العم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إنِّي لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً .. إنَّك لتصل الرَّحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضعيف وتعين على نوائب الحق) ، انظر إلى أمنية الزوجة لزوجها .. تتمنَّى أن يكون زوجها نبيَّ هذه الأمة وبفطرتها وذكائها ترى تلك المؤهلات موجودة لدى زوجها ولا تطلب شيء يخالف شرائع الله من حرام وخلافه مثل زوجات هذه الأيام ، فكل ما يهمهنَّ المال .

وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا به جِنَّة ، وهذا صوت خديجة العذب الواثق ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء . لقد أحس بالراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي ، ثم تهدهده بصوتها الأليف .

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادىء المطمئن ، ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى إذا بلغت الباب اندفعت إلى الطريق الخالي تحث خطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ، ومكة المكرمة ماتزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة .

وجاءت ورقة بن نوفل فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ماكاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلاً ، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن ، فانتفض يقول في حماسة : (قدوس .. قدوس .. والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى . إنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت) .

ولم تنتظر مزيداً من قوله ، ولم تسمع كلمة واحدة منه ، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل إليه بالبشرى .

في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن بدء الوحى قالت : فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزي ابن عم خديجة ، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية..

يكتب الإنجيل بالعبرانية ، وكان شيخاً كبير قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع هذا من ابن أخيك .. فأخبره ﷺ بخبر ما رأى وسمع ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام ، ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجي هم ؟ » قال : (نعم ، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) .

وطابت نفسه ﷺ بما سمع ، فانصرف إلى بيته مطمئناً مع زوجه أم المؤمنين الأولى ؛ ليبدأ نضاله من أجل الدعوة، وليلقى في سبيلها أشق ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين .

ووقفت زوجته المحبة المؤمنة إلى جانبه تنصره وتشد من أزره وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً ، فلما قضى على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة المكرمة لائذين بشعب أبي طالب بعد أن أعلنت قريش عليه حرباً مدنية لا ترحم ، وسجلت

مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوف الكعبة ـ لم تتردد خديجة في الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة والثكل والاضطهاد .

وأقامت هنالك في شعب أبي طالب ثلاث سنين صابرة مع زوجها النبي ﷺ ومن معه من صحبه وقومه على عنت الحصار المنهك وجبروت الوثنية العاتية العمياء ، السيدة العظيمة ذات الثراء والغنى الواسع ذهبت مع الحبيب ﷺ في شعب أبي طالب لتجوع معهم مثلهم متحملة كل أنواع العطش والجوع والحرمان .. بل عندما كان يحضر ابن أخيها (حكيم بن حزام) الطعام لها كانت ترفض ذلك وتعطيه للمسلمين ليأكلوا هم قبلها .. فهذا شبع من صاحبة البر والتقوى والإحسان .

سلام الله عليك يا أم المؤمنين

من ابنك البار الأنصاري الخزرجي

أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ

عـام الحـزن :-

حتى تهاوى الحصار أمام قوة الإيمان الصادق والمجاهدة الباسلة ، وآن للنبي ﷺ أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي ، مع زوجه المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة ماأبقى لها الزمن من طاقة في عامها الرابع والستين .

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار مات العم (أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم) عن عمر يناهز السابعة والثمانين ، وقد كان لابن أخيه ﷺ من السن ٤٩ سنة و٨ أشهر و١١ يوماً ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين وكان له أباً صديقاً وكافلاً حامياً ومانعاً له من طواغيت قريش قومه . وحيث كانت الاعتداءات تترى على الرسول ﷺ بعد موت عمه أبي طالب - أفزعت أم المؤمنين خديجة وحزَّ في نفسها ، ولكنها استجمعت كل ما استطاعت أن تستجمعه ممَّا بقى لها من شجاعة ، فتجلدت أمام زوجها وبناتها ، واستقبلت زوجها الحبيب كما اعتادت أن تستقبله من قبل حفية به ومواسية له في هذه الشدَّة التي نزلت به، ومذكرة إيَّاه أنَّ الله لن يخلف وعده ، وأنَّه سوف ينصر نبيه ، ولكن لابدَّ لنا أن نذكر أنها كانت قد بذلت منذ أن

كانت في الثانية والستين من عمرها أقصى ما تستطيع للتخفيف عن جميع المحاصرين في شعب أبي طالب ، وفي السهر على راحتهم ، على الرغم ممّا كانت تقاسيه على مدى تلك السنوات الثلاث من شظف العيش أثناء الحصار، وقسوة الجوع ، ومرارة الحرمان حتى استنفدت أكثر ماكانت تملك من طاقة الصبر ، وقوةً على احتمال المكاره . وكان موت أبي طالب صدمة عنيفة أصابتها في الصميم ، فأصبح جسمها بعد أن قاربت الخامسة والستين من عمرها ـ ضعيفاً لا يقوى على حمل هذه النكبات التي أخذت يتلو بعضها بعضاً ، فبدأ المرض يتسلل إليها ، والضعف يتمكن منها يوماً بعد يوم ، وأخذت تذوي كشجرة الورد التي أصاب المرض جذورها ، فأخذ يجف عودها رويداً رويداً ، أخذت أوراقها تذبل ثم تتناثر ورقة إثر ورقة ، حتى أقعدها المرض فلزمت الفراش .

لقد عاشت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في كنف زوجها الحبيب قرابة خمسٍ وعشرين سنة بادلته فيها حباً بحب ، وإخلاصاً بإخلاصٍ ، ووفاء بوفاء ، ونهلت بجواره من السعادة الصافية التي لم تشركها فيها امرأة أخرى ، ولم

تذق مثلها من قبل امرأة غيرها من نساء قريش ، فسعدت بفجر الإسلام وقد أخذ يشرق عليها وعلى الكون معها ، وعاشت يغمرها نور النبوة ، وأسهمت في نشر الرسالة السماوية العظمى بعقلها الراجح ، وفكرها الصائب ، ونظرها الثاقب ، ولم تبخل برأى ولم تدخر جهداً ، ولم تقصر يوماً ، ولم تبخل بمال ، وسعدت إذ رأت خيار الناس يدخلون في دين الله ، ورأت عددهم يزداد يوماً بعد يوم ، ثم حزنت حين رأت المشركين يغالون في الكيد للنبى ﷺ وأنصاره ، ويشتطون في الطغيان ويتمادون في العداوة ، ويسرفون في التنكيل بالمستضعفين ، لكنها صمدت بجانب الرسول ﷺ فقابلت غلظتهم بالصبر والإيمان حتى أذن الله بالنصر وخذل عبدة الأوثان ، فباءوا عندما فشل الحصار بالخزى والخذلان ، وكان كل أملها أن يطيل الله في أجلها حتى تتم سعادتها برؤية نور الإسلام يعم آفاق مكة المكرمة ثم يمتد منها حتى يضيء جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية ، ولكن هاهى ذي تلتزم الفراش منهوكة القوى ، عاجزة عن مغالبة الضعف والمرض .

وكان النبىّ الوافي طوال هذه الفترة من حياة أم المؤمنين

خديجة رضي الله عنها يحيطها برعايته، ويشملها بعطفه، باذلاً أقصى ما يستطيع محاولاً تقوية عزيمتها حتى تقاوم الداء الذي ألم بها نتيجة مقاومتها لكثير من الخطوب والأهوال التي نزلت بها من قبل، داعياً ومبتهلاً إلى المولى القوي الرحيم أن يشملها بكرمه وعنايته فيمن عليها بالشفاء، ولكن إرادة الله الحكيم، وقضاء الله العزيز كانا قد جريا بغير ذلك، فلم تلبث أن أخذت تحتضر فوق فراشها ثلاثة أيام لم تفارقه فيها.

وكان بناتها يلازمن فراشها ساهرات على راحتها كما كانت تسهر من قبل على راحتهن، كن يبذلن كل مايستطعن في خدمتها، وكلهن رجاء وتضرع إلى الله أن يلطف بها وأن يشفيها بفضله وكرمه، ولكنهن كن يتدرعن بالصبر، ويتجلدن أمامها، فلا تراهن إلا مبتسمات والأمل باد على وجوههن، حتى حم القضاء، وغلبت إرادة رب الأرض والسماء، ففاضت روحها الكريمة وانتقلت إلى جوار الواحد الأحد الذي آمنت به وهي راضية مرضية في اليوم العاشر من شهر رمضان، في العام العاشر الموافق الخامس والعشرين من أبريل لعام

٦٢٠ م من بداية إشراق فجر الإسلام بعد موت أبي طالب بشهر وخمسة أيام ، فينهمر دمع خاتم الأنبياء والمرسلين ، ويسيل دمع أكرم البنات ، وتحزن معهم جميعاً أطهار القلوب ، ولكنهم لا يقولون ما يغضب رب العالمين . ثم يحملها المؤمنون إلى أرض الحجون حيث يضجعها الرسول الوفى في قبرها بجوار ابنيها القاسم ، وعبد الله ، ويعود صامتاً حزيناً (وكان لي شرف زيارة قبرها بمكة المكرمة بالحجون ، ويطلقون عليه أهل مكة المكرمة مقبرة المعلاة وترحمت عليها كثيراً وبكيتها أكثر كأنها ماتت تلك اللحظة التي كنت فيها ، وكان ذلك في يوم الاثنين الموافق ٢٢ من رمضان ١٤٢٢ هـ ـ الموافق ٢٠ من ديسمبر ٢٠٠٠ م) .

وأسند الواقدي عن عبد الله بن ثعلبة عن ابن صعير رضي الله عنه قال : لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد وكان بينهما شهر وخمسة أيام ـ اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان فلزم بيته وأقلَّ الخروج ، ونالت منه قريش مالم تكن تنال ولا تطمع به .

القلم يعجز والمشاعر والعواطف والأحاسيس .. بل الدموع تحجرت والقلب كاد أن يتوقف .. والابتسامات ماتت على الشفاه .. لموتك يا أمَّ المؤمنين .

ملء الحياة والروح رضي الله عنها :

ولكن .. هل ماتت خديجة رضي الله عنها حقاً ؟!

كلا ! إنها لماثلة في حياة زوجها الرسول ﷺ ، فما يسير إلا طيف منها يتبعه ، وما يسري إلا وسنٌ مشرق منها يبدد من حوله حالك الغواشي .

وستدخل بعدها في حياته ﷺ نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه سيظل أبداً خالصاً لهذه الزوج الأولى ، والحبيبة الرءوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان ، لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة سواها .

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات ، فيهنٍ ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح خديجة رضي الله عنها عن مكانها هناك ، ولن تفلح في إبعاد طيفها الذي أقام أبداً يحوم حول الحبيب ويستأثر بإعزازه ما عاش .

وستشهد المدينة المنورة بعد أعوام يوم أن انتصر في غزوة بدر يتلقى فداء الأسرى من قريش فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة رضي الله عنها بعثت بها ابنتها زينب في فداء زوجها الأسير وابن خالتها أبي العاص بن الربيع حتى يرق قلب البطل

المتصمر المصطفى من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين في أن يردوا على زينب قلادتها ويفكوا أسيرها .

وسيشهد بيت النبى (عائشة بنت أبي بكر) في عزٍّ صباها ونضرة شبابها وحب النبىٌ صلى الله عليه وسلم لها ، تشعلها الغيرة من تلك الضرَّة التي سبقتها إلى قلب محمد ، واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثمَّ ظلَّت بعد موتها حيث كانت من قلبه ولم ترها أبداً في حياتها .

في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فعرف استئذان خديجة رضي الله عنها فارتاع لذلك فقال : اللَّهمَّ هالة ! فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت في الدَّهر ، أبدلك الله خيراً منها فتغيَّر وجهه صلى الله عليه وسلم وزجر عائشة غاضباً) .

« سامحك الله يا أم المؤمنين يابنت الصدِّيق » من كاتب هذه السطور ، الذي يكن لأم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد حباً شغوفاً وصلة وبراً وهياماً بها لدرجة أنَّه دعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه البنت أولاً فيسميها خديجة ، وقد استجاب الله لدعائه فأصبح لديه خديجة أحمد عزوز الفرخ ..

وبالمناسبة معنى اسم خديجة هو الابنة أو الابن الذي يولد ابن ثمانية أشهر ، ومذكرها خديج .. فقال لها رسول الله ﷺ : « والله ما أبدلني خيراً منها : آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » ، وزاد الطبراني في روايته .. قالت : قلت يارسول الله ، اعفُ عنِّي ولا تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه ... « بارك الله لك يا أم المؤمنين » من كاتب هذه السطور .

وكانت قبل ذلك لا تكف عن الكلام فيها ! في الصحيحين من حديثها رضي الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : « إنها كانت وكانت ، وكان لي منها الولد » ، وفي رواية بصحيح مسلم أنه ﷺ قال : « أنِّي قد رزقت حبها » ، ما أروع نبلك وإخلاصك ووفاءك وبرك وصدق العهد ، والعيش والملح والوفاء العظيم - وقد رزق الله سبحانه وتعالى حب أم المؤمنين وأم الإسلام للعبد لله أحمد عزوز أحمد الفرخ اللّهم اجعلني من جلسائها يوم القيامة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجني الرسول ﷺ إلا بعدما ماتت » !!!

وحتى يوم الفتح وقد مضى على وفاة خديجة رضي الله عنها أكثر من عشر سنين حافلة بأجلّ الأحداث ـ رؤى رسول الله ﷺ يختار مكاناً إلى جوار القبر الذي ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى (ويُعرف الآن باسم « مسجد الرَّاية » وهو مسجد معروف بمكة المكرمة) ، ليشرف منه على فتح مكة المكرمة وليقيم في قبة ضربت له هناك ، تؤنسه روح خديجة رضي الله عنها ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، متلفتاً بين آونة وأخرى إلى دارهما ، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الجهاد المضني الطويل ..

وستدخل في الإسلام منٍ بعد خديجة رضي الله عنها زوجات أُخَر ، لكنها ستظل منفردة دونهنّ بقلب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجل في حياة المصطفى ﷺ وسيذكر لها المؤرخون ذلك الدور ، فيقول « بودلي » : (أنّ ثقتها في الرجل الذي تزوجته كانت تضفي جواً من الثقة على المراحل الأول للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد في كل سبعة من سكان العالم) .

ويؤرخ « مرجيلوث » حياة محمد ﷺ باليوم الذي لقى فيه خديجة رضي الله عنها ومدّت يدها إليه تقديراً ، كما يؤرخ حادث

هجرته إلى يثرب باليوم الذي خلت فيه مكة المكرمة من خديجة رضي الله عنها . ويطيل « در منجم » الحديث عن موقف خديجة رضي الله عنها حين جاء زوجها من غار حراء خائفاً مقروراً أشعث الشعر واللحية .. غريب النظرات فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا ، وكتب عن وفاتها: (فقد محمد بوفاة خديجة رضي الله عنها تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التي لم تكف عن إلقاء السكينة في قلبه .. والتي ظلّت ما عاشت تشمله بحب الزوجة وحنان الأمهات) .

« ودرمنجم » هنا يدرك ماغاب عن كثير من قومه المستشرقين ؛ فقد فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة حين تحدثوا عن زواجه بالأرمل الموسرة .. « فمرجيلون » يجعل لمال خديجة رضي الله عنها المكان الأول في زواج كهذا بين شاب فقير وأرمل كهذه كهلة ، مات عنها زوجان من بني مخزوم ، وتركا لها ثروة ذات شأن ثم يمضي يكتب بكلمات تقطر حقداً وزوراً : (إنّ دعوة خديجة رضي الله عنها جاءت محمداً وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب حين خطب إليه ابنته أم هانىء فردّه لفقره ، وزوجها للذي

مال ، واستشعر محمد ذلّة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة رضي الله عنها في الزواج منه حتى أقبل متلفهاً على الثراء يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره) ، من أين هذه العبارات والمقولات التي تكتب أنّ أبي طالب رفض مصاهرة ابن أخيه ؟ هذا الكلام كذب وافتراء ، وهذه طبيعة المستشرقين ... يضعون السمّ في العسل .. أبو طالب يرفض المصطفى وهو الذي ربّاه بوصية من زعيم قريش الأكبر عبد المطلب بن هاشم ؟! لاتعليق على ذلك ..

وليس هذا بمستغرب من مثله ، فكذلك يلوون الأخبار في تفسيرهم لتاريخ الإسلام ، وكلامه هنا مردود بما في مصادرنا الموثقة من حديث عبد الله بن عباس ابن عم أم هانىء رضي الله عنها : ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم لأم هانىء إلى أبيها عمه أبي طالب ، وقد سبقه إلى خطبتها هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي وهو كفء كريم ، فقال أبو طالب : يا ابن أخي ، إنّا قد صاهرنا إليكم ، والكريم يكافىء الكريم ثم فرق الإسلام بين أم هانىء وهبيرة فخطبها صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله إنّي كنت أحبك في الجاهلية فكيف في الإسلام ؟ ولكني امرأة مصبية أي ذات صبية فأكره أن يؤذوك ، وفيها قال صلى الله عليه وسلم : « نساء قريش خير من ركبن الإبل ،

أحنـاه عـلى طفـل ، وأرعـاه على زوج في ذات يـد » .

وفي رواية من طريق الشعبي أنَّ أم هانيء رضي الله عنها قالت : يارسول الله ، لأنت أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري ، وحق الزوج عظيم ، فأخشى أن أضيع بعض شأني وولدي ، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الزوج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نساء قريش خير من ركبن الإبل أحناه على طفل وأرعاه على زوجٍ في ذات يد » .

وفسر « موير » في كتابه (حياة محمد وتاريخ الإسلام) وفاء محمد صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله عنها بتهيبه لمركزها المالي والاجتماعي ، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق ! ، وكان على « موير » أن يفسر لنا فيم إذن كان وفاء محمد صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله عنها بعد موتها ؟! وهل كان صلى الله عليه وسلم يخاف أن تطالبه بالطلاق وهو يخاصم عائشة فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟! ولا تعليق مرةً أخرى .

لقد كانت خديجة رضي الله عنها ملء حياته صلى الله عليه وسلم حيَّة وميتة ، وما جاوزت عائشة الحق حين قالت : (كأن لم يكن في الدنيا سواها) .. حقاً لقد صدقت يابنت الصدِّيق في ذلك ؛ فهي حبيبة رسول الله بل عقمت نساء الدنيا أن يلدن في كمالها .

وهل كان باستطاعة امرأة أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه ؟!

وهل كان لأنثى غيرها أن تهيىء له الجو المسعف على التأمل ؟!وأن تبذل له من نفسها ما أعده لتلقى ختام الرسالات ؟!

هل كان لزوج عداها أن تستقبل عودته التاريخية من غار حراء بما استقبلته هي من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان راسخ ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها أنَّ الله غير مخزيه أبداً ؟!

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة رضي الله عنها غنية مترفة منعمة أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد في سبيل ماتؤمن أنه الحق ؟!.. كلا ؛ بل هي وحدها التي منَّ الله تعالى عليها بأن شرَّفها بذلك ، وملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وان كانت أول الناس إسلاماً كما منَّ بها على رسوله صلى الله عليه وسلم ملاذاً ومسكناً ووزيراً .

ومن فضائل السيدة خديجة رضي الله عنها كما يروي كتاب

(فضائل الصحابة) لصاحبه الإمام عبد الله بن الإمام أحمد ابن حنبل .. حدثنا عبد الله قال : حدثني أبي حدثنا محمد ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة قال : سمعت الصحابي الجليل أبا هريرة رضي الله عنه يقول : (أتى جبريل عليه السلام إلى النبيّ فقال : يارسول الله ، هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لاصخب فيه ولا نصب .

وهذا وسام إلهي رباني من الله سبحانه وتعالى لها على لسان رئيس الملائكة وسفير الله إلى أنبيائه ورسله .. حبيبي سيدنا جبريل عليه السلام إلى أمي الحبيبة السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

وفي بعض الروايات قال الرسول صلى الله عليه وسلم : نساء العالمين أربع .. خديجة بنت خويلد ، وفاطمة الزهراء بنت محمد (ابنتها) ، ومريم بنت عمران (أم المسيح عيسى) وآسيا بنت مزاحم (امرأة فرعون) .

وأمّا كون السيدة مريم بنت عمران سيدة نساء العالمين ففي عصرها فقط .

ويُقال ـ والله أعلم ـ : إنَّه في حالة احتضار السيدة خديجة بنت خويلد (أى في سكرات الموت) كان رسول الله ﷺ يداعب أم المؤمنين ويضاحكها مهوناً عليها علتها ومرضها قائلاً لها : إنَّ السيدة مريم بنت عمران ستكون إحدى زوجاته في الجنة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ... وفعلاً ستكون السيدة مريم العذراء زوجته في الجنة مع أمهات المؤمنين والحور العين .

حتى في وداعك للدنيا أيتها الحبيبة تحنين على حبيبك .

حقاً كما قالت أم المؤمنين السيدة عائشة : **(كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها)** .

سلام الله عليك وملائكته وأنبيائه ورسله وصالح المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات .

يا أول من نطق بالشهادة بعد الحبيب ﷺ .

من ابنك الذي رزقه الله حبك

الأنصاري الخزرجي / أحمد عزوز أحمد محمد مصطفى الفرخ

سلامي إليك يامن تلقبين بأم الإسلام

خديجة بنت خويلد

قال رسول الله ﷺ :

- من مات على حب آل محمد مات شهيداً .
- من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له .
- من مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان .
- من مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير .
- من مات على حب آل محمد مات وهو يُزف إلى الجنة، كما تُزف العروس إلى بيت زوجها .
- من مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزاراً لملائكة الرحمة .
- من مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة.

صدق رسول الله ﷺ

ورد الحديث في كتاب الكاشف للإمام الزمخشري

